محمد زفزاف

القوة والعجز

كان عنده وهم بأنهم هنا ، حوله ، مبثوثون في كل مكان .معلقون فوق عصون الاشجار ، وداخل النباتات الكثيفه . حتى المكان الذي كان يرقد فيه دائما ، شك فيه مرارا . لذلك غيره اكثر من ليلة ، اكثر من يوم . اما الليلة فقد اصبح عنده وهم حقيقي بأنهم يطاردونه. وتصور ان الغابة كلها تصرخ باسمه . لم يكن وهما ذلك الذي سمع قبل لحظات : حدينا بين مجموعة رجال . وحاول أن يقنع نفسه بادىء الامر ، انهم مجرد سكارى او لصوص جاءوا ليختفوا فيالغابة. لكنه طرد ذلك التصور من ذهنه ، خصوصا وان الاصوات بدأت تقترب ، اصوات جادة في البحث عن شيء . كان حافي القدمين . وعندما كانت اشياء مدببة تخزه ، كان يحاول ان يقمع تلك« الاي .. » في داخله . الاضواء تظهر من بعيد ، ومن قريب كذلك . اضواء الفيلات والبارات والمراقص والاوتيلات . وكان اشدها لمعانا ذلك المنبعث من مرقص ومسبح ، يعرفه جيدا ، الا ان الاضواء كانتتختفي احيانا ، عندما يجد نفسه وسط دغل كثيف . الاصوات الجادة ، والخطوات الجادة التي تبحث عن شيء ما تزال تتعقبه . وفكر ان تلك نهايته حقا . وخاف ان يضيع الطريق للخلاص منهم . مشى وجرى ولهث ، وتعثر ايضا ، ومرة اخرى تعثر ووقف وجرى ولهث . أحس ان العالم من حوله يحاصره حصارا لا فكاك منه ، والتمع الضوء من جديد . هذا الضوء يكون خطرا بالنسبة اليه ، خصوصا وان الدوريات غير معدومة في الشوارع والازقة . صارت الاصوات بعيدة الان . ثم انعدمت نهائيا . ولكنه لم يطمئن . هل تكون مجرد حيلة تنطلي عليه ؟! كم من الحيل انطلت على كثير من امثاله . (الانسان هو الذي يأخذ درسا مما فات). لكن الدروس ـ للاسف ـ غير متشابهة . والناس غير متشابهين . واخذ يركض من جديد واعتقد ان سيولا من الدماء تنفجر الان من قدميه الحافيتين . تحمل كل شيء مع ذلك . حتى الجراح تندمل ، المهم هوالنجاة بالنفس . يمكن للانسان ان يعوض كل شيء فيما بعد . وصار وسط بقعة ملتمعة . ظهرت الاضواء بوضوح هذه المرة ، من النوافذ ، في الفضاء ، وفي امكنة اخرى لم يحددها . عيناه غطاهما عرق غزير يهطل منجبهته. اصبح جسده كله بللا في بلل ، كم هي كبيرة هذه الغابة ، كم هي شاسعة . تجاوز الاشجار ، لكن الاصوات كانت امامه ، الاصوات الجادة ، والخطوات الجادة الباحثة عن شيء حقيقي . الامر اذن لا يتعلق بوهم . ثم رجع ادراجه ، لحسن حظه ان احدا لم يره ،هذا على الاقل في اعتقاده . جرى كالمجنون ولهث وتعثر ووقف . لم يكن جسده تحت تصرفه ، كان ملك قوة أخرى لا يعرفها ، هي التي اعطته كل تلك الانطلاقة وذلك الاندفاع . وقال ان في امكانه أن يجريحتى الى ما لا نهاية . وكان بالفعل يجري نحو اللانهايه ، ووجد نفسه وسط طريق حار ووراء الطريق البحر المهند في الليل . كانالبحر يعكس عالم الليل كله . عبر قفزا حاجزا حجريا قصيرا ، ودلى نفسه في حفره رمليه سحيقه . واسمع انى نبضات قلبه العنيفه التي غطت جميع الاصوات . واحدث هذه النبضات تهدأ قليلا قليلا ، وفكر لو بقي وسط الغابه ، وظل يركض ويركض . اما الان فلا امل . ليس هناك سوى البحر بعمقه، البحر الذي يكشف كل شيء . سمع محركات تهدر خلف الحاجز . كانت السيارات تجري بسرعة فائقة . وحاول ان يحامل على نفسه كي يقف ، كي يغادر الحفرة ، لكنه لم يقو . وقال ان ذلك هو عجزه النهائي . ونبش في الرمل تكي يقبر نفسه هنا . وبدا له ذلك عبثا . لقد تركوا له الفرصة ليفعل ما فعل ، وها قد اصبح ،من غير شك ، الفمة سائغة بين ايديهم . وانتفض بقوة ، ونشبث برمال الحفرة . أطل من فوهتها فرأىالزبد الابيض يتلاشى من ناحيته ، ورأى حفيرات صغيرة مملوءة بالماء المالح ، موزعة في كل مكان . قفز من الحفرة ومشى منهكا على الشاطيء . وبدت له اثابة قريبة . ما عليه الا ان يركض ويتجاوز السياجوالطريق حتى يجد نفسه وسطها ثم شعر ان جسده تدفعه قوة غريبة للجري . واخذ يركض . قفز فوق السياج ، ومرت سيارة بسرعة في اتجاه المراقص والفيلات والاوتيلات . ثم ينتبه صاحبها له . لكنه لم يصدق عينيه . رآهم عند حدود الغابة . كانوا خمسة او ستة او اقل لا يدري . وقف مشدوها وسط الطريق اول الامر ، فرك عينيه حتى يتأكد من ان الامر لا يتعلق بوهم ، كان حقيقة . تأكد منذلك. واصاب جسده وهن كبير . ركبتاه شلتا . لكن نفس القوة عادت لتخلخلهما من جديد . هزتهما بعنف ، ورمت بجسده جهة البحر. اخذ يجري ويجري . وسمع صوتا من ورائه يناديه ان يقف . لكن ذلك لم يكن في مقدوره . تصاعد لهاثه. وجرى فوق الشاطيء لا يدري الى اين . كانوا وراءه يركضون ويلفظون . وكان الفضاء من حولهيردد: « قف قففف .. » الا ان اذنيه كانتا صماوين . سمع طلقات رصاص ولم يصدق انه المعني بذلك . سمعزنزنة وصفيرا حول اذنيه ، وبين فخذيه ، اخترق شيء ما قدميه عند الركبتين . تعثر وسقط .حاول الوقوف لكنه سقط . وسمع اخيرا زنزنة تنطفىء عند قدمه اليمنى . واحس بان اشياء تنغرز في جسده . سقط على وجهه في التراب . امتلأ فمه باللعاب والرمل والماء . وكان تنفسه يخفت شيئا فشيئا قبل ان يدركوه . ومع ذلك ، كان يتساءل هل حقا هو المعنيبالامر .

الدار البيضاء ـ المغرب